مجلة الروائز
ISSN: 2602-5914/ EISSN: 2716-9596
المجلد:07 العدد: 02 (السنة: 2023) ص ص: [07-18]

القياس النفسي بين السلوكية والظاهرية

"تأصيل القياس النفسي لدى الفلسفة الظاهرية"

Psychological measurement between behavioral and phenomenological

بشير معمرية *

جامعة باتنة01 الحاج لخضر، bashirmaamria2015@gmail.com

تاريخ الإرسال: 22/ 11/ 2023 تاريخ القبول: 28/ 11/ 2023

ملخص:

استفسرت هذه المقالة عن النظرية التي تقف وراء ممارسة القياس النفسي، وبعد أن تمت مناقشة الفروق بين ممارسات القياس النفسي بين السلوكيين والقياسيين، تبين أن السلوكية ليست هي النظرية التي نبت القياس النفسي في جذورها الفكرية، ولا في مخابرها التجريبية، ذلك أن السلوكيين بيئيين، والقياسيين يبحثون عن العمليات الداخلية وكيف يدركها الأفراد، فيقومون بالسلوك وفقا لذلك. فاتجه الاستفسار والاستقصاء إلى الفلسفة الظاهرية ومفاهيمها وتوجهاتها في فهم السلوك وتفسيره، فإذا كانت الظاهرية تفسر السلوك وفق خبرات الفرد كما يدركها في موقف معين أو في لحظة معينة، فإن تعامله مع بنود المقياس الذي ينبغي أن يجيب عنها، فإنه يجيب عنها وفق خبراته الإدراكية كذلك في ذلك الموقف أو في تلك اللحظة التي يتفاعل فيها مع بنود المقياس. فتبين حينئذ أن الظاهرية هي المدرسة الفكرية أو الفلسفية التي تأسس عليها القياس النفسي.

الكلمات المفتاحية: القياس النفسي، السلوكية، الظاهرية.

Abstract

This article inquired about the theory behind the practice of psychometrics, and after discussing the differences between the practices of psychometrics between behaviorists and economists, it became clear that behaviorism is not the theory from which psychometrics grew in its intellectual roots, nor in its experimental laboratories, because the behaviorists are environmentalists, and the econometricians They look for internal processes and how individuals perceive them and behave accordingly. Inquiry and investigation turned to the phenomenological philosophy and its concepts and trends in understanding and interpreting behavior. If phenomenology explains behavior according to the individual's experiences as he perceives them in a specific situation or at a specific moment, then his dealings with the items of the scale that he must answer, then he answers them according to his perceptual experiences as well. That situation or at that moment when he interacts with the items of the scale. It then became clear that phenomenology is the intellectual or philosophical school on which psychological measurement was founded

Keywords: psychological measurement, behavioral, phenomenological

* بشير معمرية

مقدمة:

كل عمل (بحث) علمي ميداني واقعي أو تجريبي، أو تطبيقي، لا بد أن يقوم على فكرة نظرية سابقة عليه توجهه وتدعمه، كما يدعمها هو أيضا من ناحية أخرى، بعد ذلك، عندما تؤيد نتائج البحث التجريبي أو الامبريقي أو التطبيقي الفكرة النظرية، ووفق هذه الحقيقة، فإن القياس النفسي لم يظهر بالصورة التي نمارسه بها حاليا، باستعمال الرقم بمعنى "الكم"، ومنذ عقود كثيرة، مرة واحدة أو دفعة واحدة، دون أن تسبقه إرهاصات نظرية وفلسفية تؤذن بقدومه، وتدعم ممارسته ودوره العلمي، بل هناك أفكار نظرية قوية كانت له بمثابة قاعدة صلبة وضع عليها قدميه، وتوفرت هذه الأفكار في الفلسفة في البداية، وفي علم النفس بعد ذلك .

وعلى هذا الأساس، ومن أجل أن يؤصل نظريا وفكريا للقياس النفسي، قال أحد الأساتذة، في كلمة موجزة في افتتاحية لأشغال يوم دراسي، في القياس النفسي، ومن بين ما قاله، في هذا الصدد: إن القياس النفسي ظهر مع بحوث المدرسة السلوكية .Behaviorism أو أنه مرتبط بأبحاث السلوكيين، فاستنكرت ذلك في حينه، ولكني التزمت الصمت، وأردت أن أقدم في هذه الورقة توضيحا أو تصحيحا لهذه المعلومة :

- لا يكفي لممارس القياس النفسي أن يحسن مهارات هذا الفن القياسي في ميدان البحث، من حيث إعداد أدواته: من صياغة بنود جيدة وحساب الشروط القياسية بعدة طرق بكفاءة واقتدار، كما لا يكفي أن يحسن مهارات التعامل مع نتائج القياس النفسي، من حيث تفسيرها واستعمالها في فهم السلوك موضع القياس، بل لا بد من معرفة الأسس النظرية والفلسفية التي أصلت لهذا الفن القياسي. حتى يتسنى له ممارسته وفق معرفة نظرية واضحة، وممارسة فنية صحيحة ومحل ثقة.

- مناقشة الفروق بين السلوكيين والقياسيين في البحث النفسي عامة وفي القياس، خاصة ليتبين ما إذا كان السلوكيون فعلا هم من أسسوا للقياس النفسي ويعملون به أو لا .

- ثم الحديث عن النظرية أو المدرسة الفلسفية التي كانت فعلا الأرض التي زرعت فيها بذور فكرة القياس النفسي، وتمكّنت جذوره في تربتها، واستوطنت، وازدهرت أوراقه وأثمرت، بعد اندماجه وتعانقه مع الإحصاء والفكر الكمي في الجامعات البريطانية. وخاصة بعد إسهامات العلماء الإنجليز وهم كارل بيرسونC. Pearson ، ووليام غوست W. Gossett (Student)وسير رونالد فيشر S. R. Fisher ، وفي فرنسا كذلك مع الفريد بيني A. Binet واختباره لقياس الذكاء، قبل أن ينتقل القياس النفسي إلى أمريكا فيستوطن فيها ويزدهر.

- وإذا تفضلون أكْل فاكهة "الخوخ"، مثلما أفضلها أنا، فقد استعملت سلوك الإقبال على شرائها في مثال شارح لـ "مفهوم الظاهرية". وفي مثال شارح، أيضا، لـ "مفهوم المجال الظاهري"، تابعوا، إذن، قراءة هذه الورقة إلى نهايتها.

1. الفروق بين السلوكيين والقياسيين في البحث والقياس النفسيين .وفي خاصية الموضوعية

1.1 الفروق بين السلوكيين والقياسيين في البحث والقياس النفسيين

الفرق الأول: يُعد السلوكيون تجريبيين، ويُعدّ القياسيون وصفيين (والجميع يبحثون بطرق موضوعية).

الفرق الثاني: أجرى السلوكيون معظم تجاربهم على الحيوانات. بينما طبق القياسيون مقاييسهم النفسية على البشر

الفرق الثالث: يلاحظ السلوكيون السلوك الخارجي للكائن موضع التجربة. بينما يتجه القياسيون إلى التعرف على قدرات الأفراد ومشاعرهم وأمزجتهم وسماتهم. من خلال إجاباتهم على عبارات المقاييس والاختبارات، (وكل من السلوكيين والقياسيين يبحثون السلوك)، كيف ذلك ؟ لنأخذ سلوك الخوف، أو انفعال الخوف، كمثال :

أ- يلاحظ السلوكيون، بطريقة موضوعية، الخوف كسلوك تجنبي، أي أن الشخص يتجنب عادة المثيرات التي تثير لديه استجابة الخوف، فالطفل ألبرتAlbert ، الذي تكونت لديه استجابة الخوف من الفئران، وفق تجربة واطسن/ راينر، صار يصدر منه سلوك التجنب والابتعاد عن الفئران (وما يشبه الفئران) كلما شاهدها في مكان قريب منه. ولا يشير السلوكيون إلى الخوف بكلمة "شعور أو انفعال"، لأنها عمليات داخلية، التي يرفضونها كموضوعات في البحث العلمي النفسي.

ب- يلاحظ القياسيون، وبطريقة موضوعية، كذلك، الخوف من خلال المقاييس النفسية التي يصممونها لهذا الغرض ((بعبارات لفظية، غالبا، ويكون المطلوب من الأفراد تقديم إجابات عنها مما يدركونه من معرفة، إزاء ذواتهم أو إزاء موضوعات وأشياء خارجية، أو يصفون ما يشعرون به، أو يصفون الحالات التي تكون عليها أمزجتهم))، وسواء تمت تسميته بمقياس الخوف، أو انفعال الخوف، أو الشعور بالخوف، ويقاس الخوف، لدى الأطفال والراشدين، عادة بواحد من الأسلوبين الآتيين: (ولا أتحدث عن أنواع مقاييس الخوف، فليس من أهداف هذه الورقة)

- بعبارات استفهامية، مثل: هل تخاف الظلام ؟ نعم (.....) لا (.....). (هكذا يقاس القلق لدى الأطفال باستعمال بديلين.(

- أو بعبارات تقريرية (أو تقدير ذاتي)، مثل: أخاف من الظلام. لا (.....) قليلا (.....) كثيرا (.....). (يقاس القلق لدى الراشدين باستعمال أكثر من بديلين).

إنه في الحالتين، عندما يشرع الفرد في الإجابة عن البند السابق، فإنه يختبر حالاته الداخلية، أي مشاعره ومزاجه وهو يواجه مثيرا محددا هو الظلام.

وهذه كلها عمليات داخلية، يرفضها السلوكيون رفضا تاما، كما هو معروف، ويستبعدونها نهائيا من متغيرات ومفاهيم البحث النفسي .

الفرق الرابع: كيف يقيس السلوكيون السلوك، وكيف يقيسه القياسيون ؟

1.1.1 السلوكيون

نقرأ في المؤلفات التي تتحدث عن بحوث السلوكيين في التعلم أنهم يقيسون السلوك، ولكن كيف يقيسونه ؟

يقيس السلوكيون السلوك في بحوثهم التجريبية حول التعلم بحساب عدد مرات صدور استجابة معينة من الحيوان أثناء وجوده في التجربة، ولا شيء غير هذا. مثل: حساب عدد المرات التي ضغط فيها الفأر على الرافعة، أو حساب عدد المرات التي اتجه فيها الفأر إلى الممر الأيسر وهو يسير في متاهة على شكل الحرف اللاتيني Y ، أو حرف T ، أو حساب عدد المرات التي ينقر فيها طائر الحمام على قرص لونه أخضر.... وهكذا، وكما نلاحظ فإن هذه القياسات ليست نفسية. وليست كمية. ويستدلون منها على أن حيوان التجربة اكتسب الاستجابة المطلوب منه تعلمها، والتي كانت موضوع التجربة، ويقومون، غالبا، بعرض نتائج هذه القياسات في رسوم وأشكال بيانية، مبينين المتغير المستقل الذي يكون في الغالب تعزيزا (طعام) أو عقابا (صدمة كهربائية) والمتغير التابع، وهي الاستجابات موضع البحث، وحساب عدد مرات صدورها.

ويقولون عبارتهم الحاسمة، إنهم: "يقيسون الأداء"، أي السلوك، ويستدلون من تلك القياسات على حدوث التعلم لدى الحيوان من عدمه.

وإذا استعملنا الطابع الكمي والمرادف لمفهوم القياس، فإن هذا الذي يقوم به السلوكيون ليس قياسا، لأنهم لا يمنحون

"درجة كمية" للحيوان بعد قيامه بالاستجابة المطلوبة (الأداء المطلوب)، بل يقومون بعدّ (العدّ) تكرار الاستجابة التي يؤديها الحيوان في التجربة، ولكنهم، مع ذلك، يسمونه قياسا.

2.1.1القياسيون

يقيس القياسيون السلوك باستعمال المقاييس اللفظية، فيقومون بإعداد عبارات لفظية يفترضون أنها تتعلق بخاصية أو متغير معين (القلق، مثلا)، يريدون قياسه لمعرفة "كم" يوجد منه لدى مجموعة معينة من الأفراد مقارنة بمجموعة أخرى، أو مدى ارتباطه بمتغير آخر لدى نفس المجموعة من الأفراد. ويقدمون تلك العبارات إلى مجموعة من الأفراد للإجابة عنها، وعند تصحيح تلك الإجابات يمنحون لكل فرد "درجة" تشير إلى "كم" يوجد لديه من تلك الخاصية، ولكن بعد مقارنتها بمعيار معين، مثل المتوسط الحسابي للمجموعة التي أدت مع الفرد على نفس المقياس. أو يستخرجون من درجات الأفراد قيمة معيارية "مشتركة" هي المتوسط الحسابي، يقارنون من خلالها بين المجموعات في "كم" يوجد من تلك الخاصية المقاسة.

وإذا استعملنا الطابع الكمي المرادف لمفهوم القياس، فإن هذا الذي يقوم به القياسيون هو القياس الصحيح، لأنهم يمنحون للفرد "درجة كمية" على استجابته لبنود المقياس، تشير إلى "كم" يوجد لديه من تلك الخاصية.

2. خاصية "الموضوعية" في بحوث السلوكيين وفي بحوث القياسيين

ذكرتُ في بداية هذه الورقة أن السلوكيين والقياسيين يبحثون جميعا بطرق موضوعية، فكيف ذلك ؟

إذا كانت الموضوعية تعدّ شرطا أساسيا لإدراج أي عمل بحثي ضمن نتائج العلم الموثوق به، فأين الموضوعية في أعمال السلوكيين وأين الموضوعية في أعمال القياسيين ؟

تابعوا الإجابة والتوضيح في ما يأتي:

1.2 بالنسبة للسلوكيين

سلكوا طريق الموضوعية في أبحاثهم من خلال كلامهم بألفاظ تشير إلى ما يمكن ملاحظته خارجيا لدى جميع الناس، مثل: الفأر يجري، الفأر يتوقف عن الجري، الطفل يتجنب فأرا، الجمام ينقر، الحمام يحرك جناحه الأيسر.... وغيرها. وتجنبوا تلك الكلمات التي تشير إلى أشياء لا يمكن ملاحظتها بعينها خارجيا، مثل: الفأر جائع، الطفل خائف، طائر الحمام يشعر بالملل.

ويقولون عبارتهم الحاسمة، بأنهم: "يقيسون الأداء"، أو "يبحثون الأداء"، أي السلوك، ليستدلوا من تلك القياسات على حدوث التعلم لدى الحيوان من عدمه .

فلا يقولون: "الفأر جائع"، بل يقولون: "مضت ثماني ساعات بعد آخر وجبة طعام تناولها الفأر". أو يقولون: "نقص وزن طائر الحمام بقدر الثلث". ولا يقولون الطفل يخاف من الكلب، بل يقولون: "الطفل يتجنب الكلب". ولا يقولون الأم "تحب" طفلها، بل يقولون: "احتضنت الأم طفلها لمدة 10 دقائق". ولا يقولون الرجل "يحب" سامية، بل يقولون: "مكث الرجل مع سامية لمدة ساعتين من الزمن."

إنهم يستعملون الإجرائية، دون أن يذكروا ذلك.

1.1.2 المفاهيم المجردة لدى السلوكيين خارج مجال البحث العلمي

وهنا ألفت الانتباه بأن هناك فرقا بين حديث السلوكيين عن المفاهيم المجردة، مثل: القلق، والجوع، والحب وغيرها، في أحاديثهم اليومية العادية، وحديثهم عنها بصفتهم باحثين لهذا المفاهيم تجريبيا. ففي الحالة الأولى، يتحدثون عن كل المفاهيم المجردة التي لا تلاحظ مباشرة، كما يتحدث عنها عامة الناس بأسمائها في اللغة اليومية، أما في مجال بحوثهم العلمية في إطار المدرسة السلوكية، ومنهجها، فلا يشيرون إلى هذا المفاهيم كما هي في اللغة اليومية، بل يعبرون عنها كما يلاحظونها سلوكيا.

2.2 بالنسبة للقياسيين

يقوم القياسيّون بقياس الخوف لفظيا، كما ذكرتُ، وينفّذون ذلك ضمن الإجراءات الآتية :

- توحيد طريقة الإجابة عن بنود المقياس،
- توحيد طريقة تصحيح الإجابات،
- توحيد طريقة الحصول على الدرجة الخام لكل مفحوص،
- وتوحيد طريقة التعرف على الفروق بين المفحوصين في المتغير موضع القياس،

إن توحيد هذه الإجراءات، هو الذي جعل عملية القياس "موضوعية"، مثلها في ذلك مثل التجارب. والدليل القطعي (الذي لا يرد) على موضوعيتها، هي "قابلية عملية القياس النفسي للإعادة"، مثل التجارب، بمعنى: أن أي باحث في أي زمان وفي أي مكان بإمكانه إعادة عملية القياس النفسي بنفس المقياس وبنفس الطريقة. وإضافة نتائج ذلك القياس إلى ما سبق من نتائج قياسات أخرى تم إجراؤها بنفس المقياس. لأن "القابلية للإعادة" هي الشرط العملي الأساسي، أو الشرط القوي جدا لتأكيد الموضوعية في البحث العلمي.

ويُعدّ شرط "القابلية للإعادة"، النقد القاسي جدا، بل القاتل، لأعمال فرويد والنتائج التي قال بها في مجال التحليل النفسي، لأن ما كان يقوم به إزاء كل مريض عصابي في عيادته، غير قابل للإعادة من محللين نفسيين آخرين، للتأكد من صدقه أو من فاعليته، مما جعل كل أعمال فرويد "تفتقد للموضوعية"، وبالتالي تفتقد لخاصية العلمية.

3.2 خلاصة الكلام السابق

- يُعدّ السلوكيون بيئيين، أن أنهم يقولون: "إن السلوك يتأثر بما يحدث في البيئة"، وما يحدث في البيئة (1) مثيرات وتعقبها استجابات، (2) وما يعقب الاستجابات من تعزيز أو عقاب .
- أما القياسيون فيسعون إلى التعرف على العمليات الداخلية للفرد (قدرات وسمات ووجدانات وأمزجة)، من خلال إجابات الأفراد على المقاييس اللفظية، غالبا، التي يصممونها لهذا الهف.

3. السلوكية ليست النظرية التي زرعت في أرضها بذور القياس النفسي .

لقد تبيّن، مما سبق، أن السلوكية ليست هي الأساس النظري والفكري الذي قامت عليه ممارسات القياس النفسي، ولا علاقة لها كذلك بالممارسة العملية للقياس النفسي .

وأدعم كلامي هذا بموقف أحد عمالقة السلوكية وأقدرهم على البحث فيها، بلا منازع، وهو ب. ف. سكينر B. F. Skinner. والذي صدر من سكينر، أنه أثناء قيامه بإعداد نص سابق عن الشخصية، مع أحد زملائه في البحث، يدعى (تشارلز بوتكي(Ch. Potkay ، طلب بوتكي من سكينر أن يكمّل استبيانا عن الشخصية، فأجابه سكينر، بأنه: "لا يحب أن يبدو صاحب نزوات غريبة، ولا يؤمن بمثل هذه القياسات ." (BEM B. ALLN, 2013, 568)

He does not like to appear to have Strange tendencies and does not believe in such measures.

والآن، إذا كان الفرد عندما يكون بصدد الإجابة عن بنود مقياس، فإنه يستعمل قدراته الإدراكية وفهمه ومشاعره وحالاته المزاجية. وهذه يرفضها السلوكيون، ما النظرية العلمية أو الفلسفية التي تقف كأرضية فكرية خصبة نبت في تربتها القياس النفسي، فكريا وليس عمليا ؟ لأن قيام القياس النفسي عمليا، في ممارسات البحث النفسي، حدث عندما التقى علم النفس بالإحصاء، وبالبحث النفسي بطريقة المجموعات، في جامعات بريطانيا أو انجلترا، ثم بعد ذلك في جامعات أمريكا.

4. الفلسفة الظاهرية والجذور الفكرية والفلسفية للقياس النفسي

"إن حقيقة ما يقاس هو ما يعتقد الشخص عن نفسه"

يوجه النقد عادة إلى مقاييس الشخصية باعتبارها لا تقدم وصفا حقيقيا للشخصية. والرد المباشر على هذا النقد، هو أن ما يهم ليس حقيقة هذا الوصف، ولكن ما يعتقد الشخص أنه حقيقته. فعندما يُقدَّم إلى شخص ما السؤال التالي: "هل تعاني من الارتباك عندما تكون بصدد إلقاء كلمة أمام الآخرين ؟"، فيجيب بـ "نعم"، فإن ما يهم بدقة في قياس شخصيته، ليس كونه يعاني من الارتباك فعلا أو لا يعاني منه، ولكن اعتقاده الشخصي أنه يعاني من الارتباك. فالشخص هنا يقدم وصفا لسلوكه وفق إطار مرجعي معين، ويحكم هذا الوصف سلوكه في المواقف المختلفة. (صفوت فرج، سهير كامل، 1985، 1). أي أنه أجاب على البند كما يدرك مدلوله ومعناه حول نفسه .

ويعدُّ الفيلسوف الألماني/ إدموند هوسرل (Edmund Husserl1938 - 1859 (، مؤسس الفلسفة الظاهرية Phenomenological philosophy، وتتعلق الظاهرية Phenomenal بدراسة الظواهر، والظاهرة من الناحية اللغوية هي ما يظهر للمشاهد أو الملاحظ، وتعني الظاهرية أنه يجب عند الدراسة أن تؤخذ الظواهر من حيث كونها تدرس في ذاتها بطريقة مباشرة، بغض النظر عن أسبابها ومصاحباتها، والدراسة الظاهرية من حيث كونها أسلوبا في علم النفس، تؤكد على الخبرة كما يعايشها الفرد، وتعارض أي تحليل من شأنه تحطيم الحادثة النفسية إلى أجزاء متناثرة. (محمد شحاتة ربيع، 2013، 317)

ويقول هوسرل: إن المعرفة (الخبرة) بأي موضوع هي فعل نفسي، ويتعين (يجب) دراسة أي موضوع كما يبدو في الشعور. (عبد المنعم الحفني، د. ت، 373)

ويذهب الظاهريون إلى أن المحدد الهام للسلوك، ليس هو موضوع المثير في حد ذاته، بل هو بدرجة أكبر إدراك وفهم الكائن الحي لذلك المثير. وبمعنى آخر: فإن الطريقة التي يدرك بها الشخص الأحداث المحيطة به، أو التي تقع له، تحدد الأسلوب الذي يتصرف به، أو يعمل به إزاء تلك الأحداث. (مصطفى فهمي، 1967، 107)

ويرى سنيج وكومبس (Snigg & Combs,1949) وهما من أتباع الفلسفة الظاهرية، أن السلوك كله، ودون استثناء، يتوقف على الإطار المرجعي الشخصي للفرد الذي يقوم بالسلوك. أي المجال الظاهري كما يبدو للشخص في لحظة معينة. ويتكون المجال الظاهري من مجموع الخبرات التي خبرها الشخص ووعيها في لحظة القيام بالسلوك. وهذه

الخبرات لا تصير لا شعورية أبدا. فالمجال الظاهري هو سبب السلوك. وإذا أمكن التعرف على وصف للمجال الظاهري، أمكن التنبؤ بالسلوك الذي سوف يصدر من الشخص. ويتغير المجال الظاهري بتغير الحاجات والأنشطة المتعلقة بها. ويعتقد سنيج وكومبس: أن على علم النفس أن يقبل الفكرة الشائعة، التي مضمونها: "أن الوعي سبب السلوك، وأن ما يعتقد الفرد وما يستشعر وما يخبره، يحدد ما سوف يفعله". (سيد محمد غنيم، 1975، 687. 688)

ويرى كومبس (Combs, 1981) من خلال هذه العبارة الحاسمة، أن: "السلوك دالة للإدراك"، ويترتب على ذلك (في مجال القياس النفسي)، أن يصير من الممكن الاستدلال على المتغير موضوع القياس من عينة من السلوك الذي نتج عنه ووقف المتغير خلفها. وعلى هذا الأساس، تكون الخطوة الأولى هي الحصول على بعض العينات السلوكية التعبيرية Expressive للمتغير. (صفوت فرج، سهير كامل، 1985، 12)

وفي تصور آخر، شبيه بهذا، ويؤيد ما سبق قوله فيما تذهب إليه الظاهرية، رغم أسبقيته التاريخية والبعيدة في الزمن، وفي مجال الاضطرابات، أن طريقة الإدراك والتفكير في المواقف والأشياء، هي التي تجعل الفرد يتصرف إزاءها بطريقة معينة، وتمّ التعبير عن هذه الفكرة الرائعة، منذ عهد الإغريق، حين كتب الفيلسوف اليوناني/ إبكتيتوس Epictetus (عاش بين 50 سنة ق. م/ 150 سنة بعد الميلاد)، قائلا: "إن الناس لا يضطربون بسبب ما يمرون به من أحداث ومواقف، بل بسبب نظرتهم الخاطئة إلى تلك الأحداث والمواقف". (بيرني كوروين، بيتر رودل، ستيفين بارمل، 2008، 29. 30)

وعلى هذا المنوال يمكن القول: "يسلك الناس إزاء الأفكار والمشاعر والأشياء والظواهر، ليست كما هي في الواقع، ولكن كما يدركونها". بمعنى: أن "السلوك دالة للإدراك". كما قال: كومبس، ذلك.

5. تأصيل الفلسفة الظاهرية للقياس النفسي

إذا قمنا بجمع الأفكار السابقة لدى الظاهريين، وهي :

- المجال الظاهري هو سبب السلوك .
- السلوك دالة للإدراك .
- إن المحدد الهام للسلوك هو إدراك وفهم الفرد لذلك المحدد .
- يتوقف السلوك كله على الإطار المرجعي للفرد الذي يسلك .
- إن الوعي سبب السلوك، وأن ما يعتقد الفرد وما يستشعر وما يختبر، يحدد ما سوف يفعل .
- قول الفيلسوف الإغريقي ابكتيتوس .

6. الفرد يجيب على عبارات المقياس كما يدرك معناها لديه

إذا قمنا بجمع الأفكار السابقة، وحددنا الفكرة الأساسية التي تشترك فيها، عرفنا أن السلوك الذي يعبر به الفرد إزاء ما يتعرض له من إثارات، ومن بينها عبارات المقاييس النفسية، محكوم بما يدركه لديه (في داخله) من قدرات وسمات ونزعات ومشاعر ووجدانات، إزاء عبارات المقياس، أي وفق "مجاله الظاهري"، إن حقيقة سلوك الفرد هو ما يدركه في نفسه وعن نفسه، ثم ما يقوله عن نفسه. وهذه هي نفس الأفكار التي يقوم عليها القياس النفسي، وتُستعمَل وفقا لذلك أدواته. فالشخص عندما يجيب على عبارة في مقياس بأنه يعاني من القلق، أو يعاني من الاكتئاب، فإن اعتقاده الشخصي هذا، هو حقيقته من الناحية النفسية.

وفيما يأتي عبارات من قائمة العوامل الخمسة الكبرى للشخصية.

العبارات	لا	قليلا	وسطا	كثيرا
أشعر بالقلق	....	....	....	....
أحب أن يكون حولي عدد كبير من الناس	....	....	....	....
أنا لطيف ومهذب مع كل فرد ألتقي به	....	....	....	....

إن الفرد الذي تُعرض عليه هذه البنود، فإنه قبل أن يجيب عنها، يقرؤها بإمعان، فيدركها ويفهم معناها ودلالتها، ويتعرف على خبراته إزاءها، وعندئذ يقدم الإجابة التي تتسق مع ما أدركه، أي "مجاله الظاهري ."

ما درجة شعوره بالقلق ؟ إلى أي درجة يحب أن يكون حوله كثير من الناس ؟ وإلى أي درجة يدرك نفسه أنه مهذب مع كل الأفراد الذين يلتقي بهم ؟ إنه يجيب على البنود كما يدرك هو وصف العبارات له.

7. "السلوك دالة للإدراك" و"الإقبال على شراء فاكهة الخوخ"

مثال عملي سلوكي حول "الظاهرية."

كنت في أحد الأيام جالسا في مقهى، بعيدا عن مدينة باتنة، بمعية شخص آخر من معارفي (صاحبي)، خريج جامعة، ويتوفر على بعض المعلومات في علم النفس، فأراد أن يختبر مدى صحة تلك المعلومات عنده من خلال مناقشتها معي، وتشعب بنا الحديث في موضوعات شتى في علم النفس، إلى أن وصل بنا إلى القياس النفسي وأساسه الفكري وممارساته وعلاقته بالإحصاء، وبالكم، فطلب مني توضيحا لمفهوم "الظاهرية" بمثال بسيط، وكان في الجهة المقابلة من الشارع تاجر فواكه، ولاحظنا إقبال المتسوقين على شراء "فاكهة الخوخ"، التي كانت من بين ما عرضه من سلعته "النباتية"، أي خضر وفواكه .

قلت لصاحبي: نشاهد الآن إقبال الناس على شراء "فاكهة الخوخ"، سأتخذها مثالا عمليا ملائما جدا لشرح مفهوم "الظاهرية"، وكيف يفسر الظاهريون السلوك، فالناس الذين يشترون الآن "فاكهة الخوخ"، ليس لأنها كذلك، بل يشترونها لأسباب أخرى داخلية كخبرات "ظهرت" في عقولهم في هذه اللحظة، وفي مشاعرهم، وفي وجدانهم، بمعنى: أنهم

يشترون الخوخ كما يدركونه، وليس كما هو في الواقع. وقلت له تابع وانتبه إلى ما أقوله، إنهم يشترون الخوخ للأسباب الآتية.

اشترى أحدهم فاكهة الخوخ لكونها الفاكهة المفضلة لديه،

اشترى الآخر فاكهة الخوخ لأنها مناسبة في سعرها مقارنة بأسعار الفواكه الأخرى،

اشترى الثالث فاكهة الخوخ لأنه يعرف أن والدته تشتهيها وهذه مناسبة جيدة للبر بها والإحسان إليها،

اشترى الرابع فاكهة الخوخ مسايرة لإقبال الناس على شرائها،

اشترى الخامس فاكهة الخوخ مسايرة لأحد الأشخاص من ذوي المكانة الاجتماعية المرتفعة الذي اشتراها،

اشترى السادس فاكهة الخوخ لأن أحد مرافقيه اشتراها.

اشترى السابع فاكهة الخوخ لاعتقاده أنها مفيدة من الناحية الغذائية أفضل من فاكهة العنب، مثلا.

واشترى الثامن فاكهة الخوخ لأن أطفاله الذين يرافقونه طلبوا منه ذلك... وهكذا .

واشترى الآخرون كلهم "فاكهة الخوخ"، بعد ذلك، كما يدركونه في تلك اللحظة .

وتقدمنا، أنا وصاحبي، أيضا، من ذلك التاجر وابتاع كل واحد منا منه 1 كلغ من "فاكهة الخوخ ."

أما أنا فقد ابتعت فاكهة الخوخ لأنها الفاكهة المفضلة لديّ، أما صاحبي فقد ابتاع فاكهة الخوخ حتى لا ينسى تفسير الظاهريين لحدوث السلوك.

واستفسر صاحبي، أيضا، عن مفهوم "المجال الظاهري ."Phenomenal Field

8. مثال عملي سلوكي حول "المجال الظاهري."

إن "المجال الظاهري" عبارة عن مجموعة من الخبرات المتوفرة لدى الشخص في موقف معين، أو في لحظة معينة، وبتأثير من تلك الخبرات يندفع الشخص نحو القيام بالسلوك الذي يناسب تلك الخبرات أو يمنعه. إن أحد المتسوقين الذي اشترى "فاكهة الخوخ"، فقد كانت الخبرات التي تجمعت في "مجاله الظاهري"، في ذلك الموقف، أو في تلك اللحظة، هي ما يأتي :

- التعرف على فاكهة الخوخ،
- الإحساس بمظهرها الجميل،
- إنها فاكهة لذيذة .
- ذات سمعة طيبة .
- رائحتها منعشة .

- يقبل الناس على شرائها .
- سعرها مناسب .
- هي الفاكهة المفضلة لديه .
- أفراد أسرته سوف يستمتعون بها .
- لها قيمة غذائية مفيدة .
- يساير أولئك الذين يشترونها .
- ينبغي أن يعود إلى منزله وقد جلب فاكهة لذيذة لأفراد أسرته .....

هذه الخبرات الإدراكية، وهي شعورية كلها، كما نلاحظ، أثَّر بعضها أو كلها على الفرد فقام بالسلوك الذي تمت ملاحظته.

ومعنى قول الظاهريين: "السلوك هو دالة الإدراك". أي "أن السلوك وظيفة للإدراك". أو "الإدراك يسبق السلوك ويكون سببا له ."

وقلت لصاحبي، لو اختصر لك الفكر الظاهري وكيف يفسر سلوك الناس، أقول لك: "كما تدرك تتصرف". أو "تسلك في البيئة وفق إدراكك لها."

ويتفق الظاهريون في مفهوم "المجال الظاهري" مع عالم النفس الألماني/ كرت ليفينK. Lewin ، في مفهومه: "مجال الحياة " Life Space أو "البيئة النفسية."

9. تفكير وأسف.

وبعد ذلك، فكرت وتأسفت، وقلت في نفسي: إن تدريس الفلسفة الظاهرية لطلاب علم النفس ربما يكون ضروريا، وتكون أفكار هذه الفلسفة مفيدة جدا لهم، سواء في مجال تأصيل فكرة القياس النفسي، أم في مجال الدراسات الإدراكية Perceptual Studies وعلم النفس المعرفيCognitive Psychology ، وعلم النفس البيئي Environmental psychology.

وفي الختام.

أيها القارئ الكريم،

"عندما تغوص في العلم إلى أعماقه، وتكتشف بعض ما يوجد في تلك الأعماق من أنوار، ثم تخرج إلى الواقع وتتأمل ما وجدت في الأعماق من أنوار، وتنظر في مدى سطوع تلك الأنوار على الواقع من حولك، عندئذ تجد أن العلم، وأي علم، جدير باتخاذه كعقيدة أساسية في الحياة". (بشير معمرية)

10. المراجع

- بيرني كوروين، بيتر رودل، ستيفين بارمل (2008). العلاج المعرفي. السلوكي المختصر. ترجمة: محمود عيد مصطفى. الطبعة الأولى. القاهرة، إيتراك للطباعة والنشر والتوزيع.
- سيد محمد غنيم (1975). سيكولوجية الشخصية، محدداتها، قياسها، نظرياتها. القاهرة، دار النهضة العربية .
- صفوت فرج، سهير كامل (1985). مقياس تينيسي لمفهوم الذات. القاهرة، الأنجلو المصرية.
- عبد المنعم الحفني (د. ت). موسوعة أعلام علم النفس. القاهرة، مكتبة مدبولي.
- محمد شحاتة ربيع (2013). علم نفس الشخصية. الطبعة الأولى. عمّان، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة.
- مصطفى فهمي (1967). علم النفس الاكلينيكي. القاهرة، مكتبة مصر.
- BEM B. ALLN(2013). نظريات الشخصية. الارتقاء، النمو، التنوع. ترجمة: علاء الدين كفافي، مايسة أحمد النيال، سهير محمد سالم. الطبعة الثانية. دار الفكر. ناشرون وموزعون. الأردن. عمّان.